تعاون معنا

نفث الضابط سيجارته في وجه فضاء مكتبه، لتتشكل سحابة دخان خبيثة ضايقت الكهل محمود من شدة كثافتها، ابتسم الضابط ابتسامة ماكرة وكأنه رأى الضيق وهو يتسلل لفؤاد محمود، وطارت العصفورة مرتعدة عن بيضتيها التي وضعتهما في عش قديم على حافة شباك المكتب ، بينما اختفى الصرصار المقيم في المكتب في إحدى زواياه باحثا عن جحر للاختباء، غادر الضابط كرسيه وجلس أمام الكهل محمود مباشرة، وفتح علبة السجائر ومدها نحو محمود ليتناول سيجارة إن شاء، لكنه رفض العرض مع ابتسامة صفراء تخفي خلفها فضولا جامحا، كما أنه رمق الضابط بعينين وديعتين هادئتين كغزالين يرعيان في حقول الله بأمان، مستنبطا من ملامحه غابة موحشة مليئة بالقسوة والأنانية، محاولا تفسير الابتسامة التي تنفرج عن شفتيه طوال الحديث، لكنه أخفق في إيجاد التفسير لذلك سرح نظره في العش القديم، واشمأز كثيرا من الصرصار القريب، أخذ الضابط نفسا عميقا وكأنه يريد أن يدخل عالم الجدية بعد قضاء الوقت في الترحيب والكلام العام، فسأل وهو يزيل رماد سيجارته عن مكتبه بأطراف أنامله:

- هل تعرف لم أحضرناك هنا؟!

هز محمود رأسه نافيا وكأنه أخرس ، فتعجب الضابط من برودة استجابته فقال متهدجا:

- ما بك تحدثني بالإشارات؟! ألا تنطق؟!

- بلى، ولكن ماذا تتوقع مني أن أجيب وأنت تعرف الإجابة مسبقا، أنا رجل مسالم كنت أتناول الطعام مع أولادي وزوجتي وأحضرتموني فجأة وكأنني قاتل.

ضحك الضابط مجرد ما فرغ محمود من حديثه، وقال ساخرا:

- هل تعتقد أننا نحضر المجرمين فقط إلى هنا؟

وأردف حديثه بتهكم

- نحن نهتم كثيرا بالمسالمين أمثالك.
وأخرج سيجارة أخرى من علبتها، فوضعها بفيه دون أن يشعلها، ثم استأنف الحديث و سبابته تشير نحو محمود وكأنها تنطق
- رغم أنك لم تكن مسالما قبل ثلاثين عاما.
- وهل أحضرتني هنا، كي تحاسبني مرة أخرى عما حدث قبل ثلاثة عقود.
- لا، لا، رجاء لا تستبق الأحداث، فالذي حصل في الماضي قد تعاقبت عليه، وبصراحة قد أحضرتك هنا ، لأنني اعتقد جازما أن الثلاثين حولا قد غيرت كثيرا من طريقة تفكيرك، وربما أن الويل الذي تعانيه الآن بسبب غلطتك التي حصلت في الماضي العتيق ما تزال تؤنبك وتؤنب مستقبل أولادك، لذا فأنت تطمح لو عاد بك الزمن لتغير ما مضى، وها أنا أمنحك فرصة العودة للماضي الجميل.
ارتعش كيان محمود وكأنه يجلس على جليد صلب، وأخرج من العينين الوديعتين غضبا متناثرا في أرجاء المكان، وقال بأسى :
- عن أي غلطة تحدثني، أنتم تعلمون أنني لو عشت طوال حياتي محافظا على تلك الغلطة لما وجدتني جبانا مستسلما للقمة الخبز اليابسة.
وكتم الكهل شيئا من غضبه واسترد الوقار الذي كان يلازم جبهته وتحدث بنبرة صافية مليئة بالحنان
- إن كان لضميري أن يتلوع عذابا، فإنه سيؤنبني لأنني تخليت عن مبادئي التي تسميها غلطة لأنجو من عذابكم الزائف.
- عن أي مبادئ تتحدث، كل شيء يخالف قانوننا فهو حرام.
- قانونكم لم يهبط من السماء، ولم يغلف بالقدسية، كي ألتزم به
- ولكنك التزمت به، شئت أم أبيت فأنت ملتزم!
- لست مستعدا يا حضرة الضابط أن أعيد حديثا مضى عليه ثلاثون عاما، فكل شيء قد انتهى.
قبل أن ينتهي كل شيء كان الكهل محمود لا يتجاوز الثامنة عشر آنذاك من عمره، وكان مراهقا يافعا يحمل في داخله رجلا بالغا

يمتلك من الصفات الحميدة ما تجعله مطمعا لكافة الآباء، كان ورعا، محبا للخير، متلهفا للعلم، ويسعى بشتى الطرق للحصول عليه، لذا فقد تعرف على العلامة الشيخ عكرمة والتحق في حلقاته التدريسية التي تقام في مسجد البلدة الرئيسي، لقد كان محمود مثالا يحتذى به من قبل التلاميذ الآخرين من حيث سرعة البديهة، والالتزام التام بالحضور للدرس، والأدب في السؤال، وكثير من الأمور التي جعلته يحظى بمكانة عظيمة في نفس الشيخ عكرمة، فمحمود ما يزال يذكر كلمات الشيخ وما زالت تقتله لتخاذله وتقصيره في هذه اللحظة.

- إن بقيت هكذا يا محمود، فسيكون لك شأنا عظيما في الإصلاح بإذن الله.

ومرت الأيام ومكانة محمود ترتفع شيئا وشيئا عند الشيخ عكرمة، وقد تعرف محمود خلال تلك الأيام على رجالات صنعت الأمجاد، وساهمت في نهضة الأمة وإيقاظها من سباتها، حتى تأثر بهم كثيرا وأصبح يسير على نهجهم وخطاهم في كل خطوة من خطوات حياته العرجاء، لدرجة انه طلب من الشيخ عكرمة الانضمام لهم، فرد عليه الشيخ وفرحته بالمراهق تكاد تصفع الخوف على وجهه:

- لكنك تعلم أن رأينا محظور!

- رأيكم عبارة عن مجمع سخي لمبادئي التي رسختها في أعماقي، ونحن نعيش من أجل المبدأ.

- ليس من السهل أن تحافظ على المبدأ في ظل زمن تسوده الشهوات وتحكمه لقمة الخبز.

- منذ هذه اللحظة سيكون المبدأ هو خبزي.

- لكنك ما تزال صغيرا، وربما لن تتحمل ما سيجري لك من عواقب.

- الصغير هو مفتاح الكبير، إن أخمدوا روح الصغار فحتماً سيصلون لرؤوس الكبار.

- وماذا عن مستقبلك؟!

- سحقا لمستقبل خال من المبادئ والقيم.

ربما أن روح الشباب قد خانت الفتى محمود، وربما أن المبدأ لم يملأ معدته ويسد جوعه، فطعم الخبز لذيذ، لذيذ للغاية. فقد تم القبض عليه في ذلك اليوم المشؤوم والذي أدلى فيه رأيه بكل صراحة وكان قد بلغ وقتئذ السن القانوني وقد تجاوز الثامنة عشر ببضعة أيام، كما أنه أنهى دراسته الثانوية بنجاح باهر آنذاك، وقد كان ينوي السفر لدراسة الطب بالمجان، لكن السجن كان أقرب إليه من أحلام أمه التي انهارت مجرد ما سمعت الخبر، فابنها سوف يدخل السجن ولم يعرف معنى الحياة بعد، سيدخل السجن وأناملـه ما تزال لينة لا تقوى على حمل العذاب، فالعذاب وزنه ثقيل وأثره على النفس كبير، حاولت قدر الإمكان أن تدخل السجن بدلا من ابنها، لكن قانون الدنيا لا يؤمن بالغرائز، هرعت نحو المسؤولين لتصغير ابنها بضعة أيام كي يعتبروه طفلا غير مسؤول عن تصرفاته ويلتحق بالأحداث، لكن سرعان ما انحدرت كل محاولاتها البريئة نحو الفشل، فربما أن عقل الفتى قد نضج في أيام! بينما قد فقدت هذه الأيام قيمتها حينما انتظرت أم محمود موعدها لمقابلة أحد المسؤولين بفارغ الصبر.

أودع الفتى محمود السجن لمدة معينة، قد تذوق خلالها كافة أصناف العذاب المطهوة من قبل أفضل طباخي العذاب، محاولين نقض مبادئ محمود ونفشها كالصوف في دماغه الهش، كما أنه حرم من دراسته التي فقدها مجرد ما دخل السجن، وانهارت قوى الفكر عنده أمام قوى المعذبين، وأصبح حجم رغيف الخبز في عينيه كبيرا جدا، ولونه مدهش، ورائحته ممزوجة بدم طازج، ولم تتمكن أمه من رؤية ابنها إلا لمرة واحدة خلال مدة السجن، وكانت قد أحضرت واسطة هرمة شجعة تمكنها من رؤية فلذة كبدها بعدما باعت نعاجها لتدفع أجرة مواصلات الواسطة. ما أغلى المواصلات!

أجهشت أم محمود بالبكاء الحاد مجرد ما رأت صورة ابنها الفتية تقترب للكهولة من هول العذاب، وتمنت في تلك اللحظة أن تضمه لصدرها، وتقبله بعنف، لكنها لم تقدر من سياج السجن ذي

المربعات الدقيقة، لذا طلبت من ابنها أن يمد لها أصبعه، وحينما فعل، هجمت على أصبعه بفيها وكأنها قطة متوحشة قد وجدت فأرا مدللا، فأخذت تقبل أصبع ابنها وتلعقه بشراهة وهي تتخيل أن الأصبع قد أضحى رجلا وسيما يستعد للدخول على عروسه. لقد تخيلته ابنها!

مضت السنة وكأن أيامها قد تحولت لسنين، ويبس جلد محمود كما لو كان رغيفا يابسا، وتجمدت المبادئ تحت جليد عقله المتراكم في رأسه، باحثا عن شمس الحياة لتعوث المبادئ في باحات الكون من جديد، لكن بحثه عن طعم الخبز في الظلام قد منعه من رؤية النور في وضح النهار. اجتهد محمود في البحث عن أعمال حرة تمكنه من العيش بكرامة، فالوظائف قد حجبت عنه، وحقوق مواطنته قد اقتصرت على الحياة لمجرد الحياة، وتوارث أبناؤه فيما بعد نصيبه من الحرمان، فملف أبيهم أسود ولا يجدر لأبناء المخالفين التمتع بمواطنتهم على أتم وجه، وذنبهم في ذلك أنهم جاؤوا من صلب رجل يدعى محمود. عجبا لهم! أما كان لهم أن يختاروا أباً آخر؟! أباً محشواً باللحم، نظيفاً من المبدأ، أقصى أحلامه لقمة خبز مطلية بعسل مغشوش.

وعرف الضابط مدى حزن الكهل محمود على أبنائه لعدم حصولهم على أدنى أحلامهم، فدخل من خلالهم إلى قلبه المنهار، ونظر للحزن في عيني الكهل، واستأنف حديثه قائلا بمكر:

- فعلا ، كل شيء قد انتهى، لكن بإمكانك أن تبدأ من حيث انتهيت، وتصلح ما فات.

اشتد غيظ الكهل محمود وقال بتذمر، وكأن طيف المبدأ قد مر أمامه:

- لم أخطئ كي أصلح.

- ويل لك، ما تزال تصر على عنادك وعدم ارتكابك الخطأ رغم كل ما حصل معك.

- أتعلم؟! لو كان جسدي يتحمل ما تحملته في شبابي لواصلت ما قطعت، ولأتممت طريقي بكل حدب.

- ولم كل هذا، هل تعاند لمجرد العناد.

- أعاند من أجل المبدأ.
- المبدأ لن يطعمك أبدا.
- المبدأ سيصنع الطعام لشتى الأفواه الجائعة، المبدأ سيخلق لقمة لذيذة تبتلع بكرامة.
- اسمع، ودعنا من مبادئك...

وتوقف الضابط فجأة عن الحديث، وجر كرسيه وراءه ليصير أمام الكهل محمود ، وقد طابق ركبتيه مع ركبتي محمود، واستأنف حديثه بإغراء:

- تعاون معنا، وسنضمن كل أولادك، سنضمن حياتهم، ورزقهم، سنوظفهم بأحسن الوظائف، سنبني لهم أفخم البيوت، سنزوجهم، ولن ينقطع عنهم الخبز أبدا، واعلم أن الفرص قلما تتكرر، وأنه بإمكاننا أن نختار غيرك، لكنك أنت الآن تحظى بمكانة اجتماعية كبيرة، كما أن الناس تثق بك كثيرا ولن يشكوا أنك متعاون معنا أبدا. فما رأيك؟

ما كاد الضابط أن ينتهي من حديثه حتى تزلزل المكتب على إثر ضحكة من محمود صادقة، وكأن أنامل الكون قد تجمعت حوله لتدغدغه، وقال بعد ضحك طويل

- إنك تتحدث أيها الضابط وكأن أولادي دمى قد صنعتها بيديك، متناسيا أن الله قد خلقهم وتكفل بهم، فالله وحده هو الضامن، ثم أنني ما أزال أتعجب من جرأتك. كيف لك أن تطلب مني أن أخون ثقة الناس.
- هل أفهم من حديثك أنك ترفض العرض؟!
- لم أتعاون معكم يا حضرة الضابط وأنا مراهق حتى أتعاون معكم وأنا أكاد افتح باب الشيخوخة على مصراعيه !

تصنم الضابط مذهولا من حديث الكهل ، وتعجب كثيرا من جرأته وإصراره على موقفه، وإخلاصه لمبادئه، فأشار عليه بالخروج الفوري، فلم يعد بإمكانه أن يتحمل وجوده في مكتبه، فخرج محمود وقد ضجت دماء الشباب في روحه، وقل حجم رغيف الخبز

فـي عينـه، وأصـبح قوامـه ممشـوقا كمـا لـو كـان مراهقـا، والبسـمة لـم ترافقـه قـط، بينمـا قـد خـبط الضـابط مكتبـه بقدمـه، والحـائط بيديـه، وأصبحت حالته كمجنون يحتاج لجرعة مهدئة، أو دواء ينسيه محمود طـوال الحيـاة، وفـي تلـك الأثنـاء خـرج كتكـوت صـغير مـن إحـدى البيضـتين مقشـعرا فبحـث عـن أمـه لتمـده بـالقوت والـدفـء فلـم يجـدها حولـه، كمـا أنـه انتظرهـا طـوال المسـاء لكنهـا لـم تعـد، بينمـا قـد تمكـن الصرصـار مـن إيجـاد بيـت مهجـور فـي إحـدى زوايـا المكتـب وبـدأ بتشكيل عائلته.

النهاية